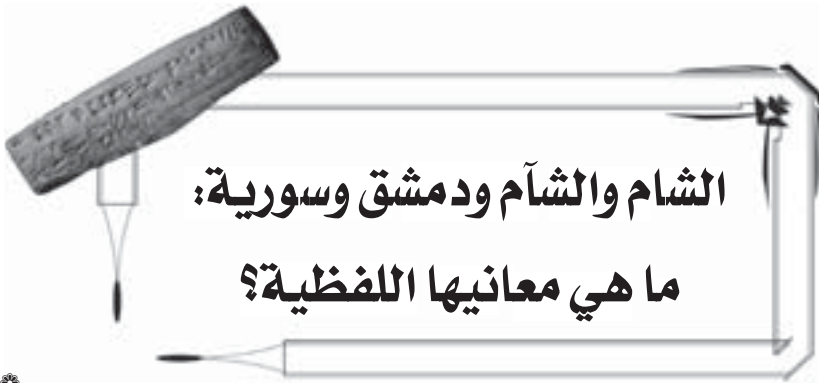


آفاق المعرفة



*
ملاتيوس جبرائيل جفنون

كلمات أربع هي على لسان كل سوري، بل كل عربي. بسيطة الدلالات المكانية، فالكُلُّ يعرف أنها تطلق على دمشق المدينة وعلى «بلادها» أي «بلاد الشام» ما وعت ذاكرتنا. والشيء ذاته ينطبق على «الشام». الجميع يعرف هذا وذاك. ولكن: ما هي معانيها اللغوية؟ ومن أين أتت؟ ولماذا؟ ومتى؟ فيقدر ما هذه المفردات رائجة الاستعمال ومتداولة، بقدر ما يعتري معانيها الغموض: فما من أحد يعلم، علم اليقين، ماذا تعني هذه الألفاظ. وقلائل هم الذين اکتثروا ليعرفوا.

* باحث سوري.

العمل الفني: علي الكفري.

الشام والشام ودمشق وسورية: ما هي معانيها اللفظية؟

اليمني القديم بلهجاتها الأربع السبئية والمعينية والحضرمية والقتبانية التي بَحَثْنَاها بعمق، وكذلك الآرامية بلهجاتها المختلفة من تدمرية وسريانية وغيرها مما حظي باهتمامنا الخاص إضافة إلى اليونانية القديمة التي نعمل على قراءة الجديد من نقوشها المكتشفة حديثاً.

بقي عليّ أن أبحث بنفسي عن «ضالّتي» بل «ضالّتنا» المنشودة. وإليكم ما أسفرت جهودي وتمخضت بحوثي عنه. وأنا هنا لا أدّعي أنني بَلَّغْتُ جادّة الصواب، أو أنني وصلت إلى القول الفصل لأنني لا أجزم في قطعية استنتاجاتي، بل أطرح ما توصلت إليه أمام قُرَّائي من فقهاء اللغة و الدارسين والمهتمين من المثقفين عساهم يجتهدون إلى ما هو أكثر صواباً والله المعين.

ولكن، ومع ذلك، فإنني سأدعّم كل تفصييلة أعرضها بما أُوتيتُ من الحجة والبرهان والإقناع.

وقبل الشروع بتقديم تأويلاتنا لهذه الألفاظ سنتعرض للعديد من أمثلة التأويلات الرائجة اليوم. فقد أعطيت للشام تفسيرات عديدة لعل أهمها أنها ليست إلاّ تحويراً لاسم «سام» بن نوح التوراتي الذي

لا بد لنا، قبل الخوض في مثل هذا البحث، من أن نوّكد على الوحدة الجغرافية والحضارية والتاريخية لبلاد الشام مع الجزيرة العربية. وأي كلام في غير هذا السياق لن يوصلنا إلى استنتاجات صحيحة في تأويلات الألفاظ التي نحن بصدددها. فنحن حين نتحدث عن اللهجات الآرامية لبلاد الشام، وعن اللهجات العربية في الجزيرة العربية، فإننا نشير إلى متانة الروابط اللغوية بين هذه وتلك للدرجة التي نجد هذه التداخلات جلية في عربية قريش التي لا نجد تعبيراً عنها أفضل من عربية القرآن الكريم. ولسنا هنا في مجال البحث بهذه التداخلات التي أُشِيعت دراسة من قبل العديدين.

أما بالنسبة لي، فكانت تأويلات هذه الألفاظ الأربع لغزاً أو تكاد، إذ لم أصادف من «العارفين» من يعرفها، ولم أستشر مصدراً وأرشدني إلى معاني هذه الألفاظ، اللهم إلاّ في نطاق الاشتباه والظن والتخمين!!! فالمعلومات التي أفادتنا المصادر بها لا تخرج عن كونها تهيؤات أو مقاربات لا تستند إلى معرفة باللغات القديمة التي سادت قديماً في المنطقة العربية أقصد عربيات الجنوب

الشام والشام ودمشق وسورية: ما هي معانيها اللفظية؟

الشام». وكانت تُعَرَّفُ حقاً باسم آخر ما زال عالقاً بذاكرتنا إلى اليوم، وإن لم يُعَدَّ بعدُ مستخدماً، وهو «بصرى إسكي شام» الذي راج استخدامه في الدور العثماني، حيث إسكي لفظ تركي يعني «قديم» أو «القديم» والشام تعني «الشمال» كما سيأتي لاحقاً. إذاً فقد سبقت بصرى دمشق إلى لقب الشام. والسبب تاريخي وجلي لأن بصرى سبقت دمشق كمحطة نهائية لقوافل التجارة التي كانت تأتي إليها من بلاد الحجاز واليمن. والأدلة على ذلك نجدها في سيرة الرسول العربي محمد (صلى الله عليه وسلم) الذي كانت له محطات نهائية في بصرى الشام تنتهي إليها قوافل التجارة التي ساهم فيها منذ نعومة أظفاره. وليس دير الراهب بحيرا الذي التقاه في بصرى حسب التقليد المتناقل ولا جامع مبرك الناقة إلا أدلة على هذه المحطة التجارية. ثم أنه ماذا تعني أن تكون الشام، إن صح وإن استأثرت، دون غيرها، بلقب الشام، شامة على وجه الدنيا؟! هذا كلام ليس له وزن بالمعيار العلمي. ولا ننسى هنا أن مدينة طرابلس الساحلية بلبنان اليوم أيضاً حظيت بلقب طرابلس «الشام»، ليس لأنها تتبع لدمشق الشام، أو لبصرى

تُقدِّمُه لنا المصادر على أنه Shem. وَيَتَقَوَّى القائلون بهذا التأويل بحقيقة أن حريف السين والشين بالأرامية يمكن استعمالهما تبادلياً بين الأرامية والعربية ويوردون بعض الأمثلة مثل شتّا = ستة، بشم دألوها = بسم الله، مشقي = مسقي أو مروى إلخ.. وردنا على هذا التأويل أنه ما علاقة سام، إن وجدَ هذا «السام» فعلاً، ببلاد الشام؟ وينسى هؤلاء أنهم يكرسون، عن قصد أو بغير قصد، فكرة نسبة بلاد الشام للسامية؟ هذه الفكرة التي لا تستند على أي دليل علمي ملموس أو مقنع. وثمة من يقول إن الشام دُعِيَتْ بهذا الاسم لأنها «شامة» على وجه الدنيا!!!؟؟؟ وردنا على هذا التأويل أن لفظ «الشام» مجرداً هكذا لا يطلق على مدينة دمشق إلا في أدبياتنا الشعبية اليوم. والحقيقة أننا حين نقول «الشام» وبذهننا مدينة دمشق، فإما نعني بها اختصاراً لعبارة «دمشق الشام». وهناك فرق شاسع بين معنى «دمشق» ومعنى «الشام» كما سيأتي لاحقاً. ونذكر في هذا المقام أنه ليست دمشق فقط هي التي حظيت بلقب أو بنسبة الشام، بل سبقتها إلى ذلك بصرى التي عُرِفَتْ ببصرى الشام قبل أن تُعَرَّفَ دمشق باسم «دمشق



الشام، بل تمييزاً لها
عن طرابلس «الغرب»
بليبيا. أقول طرابلس
«الغرب» تمييزاً لهذه
الأخيرة أيضاً عن
طرابلس «الشام» أو
طرابلس «الشمال»
كجهتين جغرافيتين لا
أكثر ولا أقل.

العمق التاريخي

لهذه الألفاظ:

إلى متى تعود هذه

الألفاظ في عمق التاريخ؟ سؤال مطروح
تمكنت من اقتفاء أقدم أثر له، ظهر حتى
الآن، في الوثائق الكتابية القديمة. فأول
ذكر لاسم «الشام» كاسم آخر لمدينة «دمشق»
يمكننا استبصاره في «التقارير الحولية»
للملك الآشوري شلمنصر الثالث الذي ملك
ما بين عامي (٨٥٨-٨٢٤ ق.م) حيث جاء
في تقرير عن حملته الكبيرة على التحالف
الآرامي في موقعة قرقر الشهيرة: «فقد
استقدم (أي أورجيلينا ملك حماه) لمساعدته
١٢٠٠ عربية و١٢٠٠ فارس و٢٠٠٠ من جنود
المشاة التابعين لأداد إدري (حدد عزز) ملك

Sha-imerishu (ويقصد دمشق).. إلى
آخر ما هنالك مما ورد في النص». ويمكننا
هنا، بسهولة وأمان، مماهة لفظ «شام» أو
«شَام» بالشطر الأول من هذه الكلمة.

وقد وَرَدَ اسم شائِمِريشو -Sha-
imerishu مرات عديدة في نصوص
الملوك الآشوريين كبديل لاسم «دِمَشَقا» أو
«دِمَشَقِي» وهذا الاسم الأخير سنأتي على
اجتهادنا في تأويله في الفترة الأخيرة من
هذا البحث. أما اسم Sha-imerishu
الأكادي الأصل فيتكوّن من لفظي -Sha-
erishu و im. ويشير مترجم النص إلى
أن اللاحقة -Shu- في أواخر الأسماء تفيد

الشام والشام ودمشق وسورية: ما هي معانيها اللفظية؟

أودُّ أن أوضِّحَ لقارئِي الكريم أنني لم أتمكن من الاهتداء إلى التفسير الذي اعتبره شافياً لغيليل الباحثين عن معاني «الشام» و«الشام»، إلا من خلال تمحيصاتي بعربيات الجنوب، أو عربيات اليمن — وأقصد اللهجات العربية الجنوبية التي نشأت أصلاً في اليمن قبل الميلاد ببضعة قرون واستمرت هناك بعد الميلاد أيضاً ببضعة قرون — والتي دَرَسْتُها اعتباراً من نصوصها الأصلية كما هي مدونة حقيقة الأمر بالخط المعروف «بالقلم المسند»، أقول إنني بعد هذا كله فقط، استطعت أن أحلَّ اللغز الذي أحاط بمعناها. وإليكم خلاصة ما توصلت إليه فيما يلي:

كان سكان الجزيرة العربية، ولا سيما منهم الذين يقطنون الشطر الغربي من الجزيرة، اعتباراً من أقصى شمال المناطق المتاخمة للبحر الأحمر مروراً بالحجاز فتهامة وانتهاءً باليمن في أقصى الجنوب، كانوا يشكلون، مع بلاد الشام كيانات حضارية متكاملة فيما بينها منذ أقدم الأزمنة. ولعلَّ الصلات الأقوى التي كانت تربط بينهم، إضافة إلى الروابط العرقية والثقافية، هي الصلات التجارية البالغة

معنى «تجار السلع كالمح والخبز والفخار والفواكه إلخ...»^(١) وهذه الإشارة الأخيرة بالغة الأهمية سنعود إليها لاحقاً لتأييد ما توصلنا إليه من معلومات حول تأويل معنى لفظ «شام» أو «شام» وتأكيده.

هذا كان عن العمق التاريخي للفظتي «الشام والشام». أما بالنسبة للفظة «سورية» فيبدو أن ظهورها الكتابي الأول قد واكب الظهور الأول للفظتي «الشام والشام». إذ تُفيدنا الموسوعة البريطانية Encyclopaedia Britannica

في هذا الخصوص ما تعريبه: «لفظٌ لم يَرِدْ ذِكْرُهُ في التوراة. وأقدم ذِكْرٍ له أوردَه الشاعر اليوناني هوميروس والمؤرخ اليوناني هيروdotus الذي أشار إلى السوريين هم من الآشوريين^(٢) وأن هؤلاء الأخيرين هم من القبائل البربرية.. وقد أطلق هذا الاسم، أي سورية، ليشمل جزءاً من جبال طوروس...»^(٣)

ما هي معانيها؟

بعد الاستعراض التاريخي للظهور الأول لهذه الألفاظ الثلاثة، نعود الآن إلى السؤال المطروح أساساً كعنوان لهذا البحث. ما هي معانيها اللفظية؟

الشام والشام ودمشق وسورية: ما هي معانيها اللفظية؟

ما زلنا، إلى اليوم نقول مثلاً «إلى شمالك» ونقصد «إلى يسارك». وفي هذه الحقيقة الأخيرة، يكمن سر الإجابة على معاني كلمتي «شام» و«شام»، لأنه، إذا عدنا إلى معجم الفاظ عربيات اليمن، بلجاتها الأربع، وأقصد السبئية والحضرمية والمعينية والقتبانية كلها على حد سواء، لاكتشفنا أن الفعل الثلاثي المجرد (شَامَ) يعني «اشترى» حرفياً، ومنه يأتي الاسم (شَامَت) بمعنى «السُّلعة» أو «البضاعة». ليس هذا فقط، بل وإنَّ هذا اللفظ الأخير نفسه، وبحرفيته، يعني «الشمال» في عربيات الجنوب اليمينية أي «جهة الشمال» التي هي عكس «الجنوب»^(٤)!!! فماذا يعني كل ذلك؟ وما هي دلالاته؟

هنا نأتي إلى زبدة القول وهي أن بلاد الشام كانت تعني شيئاً بالنسبة للأعراب، وهما أن بلاد الشام كانت بلاد «الشمال» أولاً كموقع جغرافي بالنسبة لهم، وثانياً، وبالقدر ذاته من الأهمية، كانت هي البلاد التي يقطنها أهل «الشراء»، أي حيث يُصَرَّفون بضائعهم. أي أن اللفظين يفيدان معنى «بلاد الشمال» و«أهل أو بلاد الشراء» في آن معاً. وأخيراً أفيد بأن كلمة «سوري»

الحيوية بالنسبة لهم جميعاً. ولقد وثق لنا القرآن الكريم هذه الحقيقة التاريخية في سورة قريش جاء فيها ما حرفيته: ﴿لَا يَلَا فِ قُرَيْشٍ ؕ إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ؕ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ؕ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِّنْ جُوعٍ وَأَمَّنَّهُمْ مِّنْ خَوْفٍ ؕ. وأذكر هنا أن ما كان يُعرَفُ بطريق البخور، كان يبدأ من بلاد اليمن، بلد منشأ البخور على أصنافه من لبنان ومصر وخلافهما، ثم يتجه شمالاً خلال تهامة إلى الحجاز ويستمر شمالاً باتجاه وادي عربة مروراً بالبتراء ثم بصرى الشام فالى دمشق التي كانت محطة رئيسة للبيع وإعادة التوزيع إلى بقية المناطق وعبر البحر المتوسط.

وفى العصور التي سبقت المسيحية والإسلام، كان الأعراب سكان الجزيرة هؤلاء، في غالبيتهم، من الوثنيين كما هو معروف. وكانوا، إذ ذاك، يعتبرون الجهة التي تُشْرِقُ الشمس منها، هي الجهة الأولى التي إذا استقبلوها بوجوههم، صار الغرب وراء ظهورهم والجنوب إلى يمينهم، ومنها بلاد «يُمَنَّة» أو اليمين أو «اليمن» لأنها تقع إلى يمينهم، أما إلى يسارهم، أو «شمالهم»، فتكون بلاد «الشمال» أي بلاد الشام. ونحن

الشام والشام ودمشق وسورية: ما هي معانيها اللفظية؟

من مدينة اسمها فوقايا تقع على السواحل الغربية لآسيا الصغرى.

وأخيراً ماذا عن تأويل اسم

«دمشق»؟

وهنا أيضاً تعددت الاجتهادات وتنوعت. فَمِنْ قائل إن دمشق تأتي من فعل «دَمَشَقَ»!؟! وردنا أنه لا وجود لهذا الفعل أصلاً في متون معاجم العربية ولا في غيرها. ومنهم من يقول أن تأويلها «دار ميسق» الآرامية بمعنى الدار المسقية. وهذا التأويل، مع عدم دقته، نرى فيه جزءاً من الحقيقة والإقناع. وهناك قائل يردد أن تأويلها هو «دَيَّ مَشَقِي» من الآرامية أي «ذات العُطر» أو «ذات العبير» أو، بشيء من التحوير، «أُمُّ العبير» لما عرفت به هذه المدينة من عبق المسك الذي يفوح في أجوائها بسبب غوطتها منذ أقدم العصور. والرد على هذا أن الآرامية لا تحوي لفظاً من متون معاجمها يحمل هذا المعنى، أي «مشقي» بمعنى المسك أو العطر. وثمة قائل إن اسم دمشق يأتي من عبارة «دو ماسكوس» أي، حسب قولهم، «دو» تعني «اثنين» و«ماسكوس» تعني «المسك» وهؤلاء يتناسون أن اسم دمشق باليونانية إنما هو «داماسكوس» وليس «دوماسكوس»

هو لفظ أكادي لا يعني إلا الشمال وأعود لأذكر القارئ الكريم بما كنت قد أشرت إليه في فقرة سابقة من أن اللاحقة Sha-imerishu-shu الأكادية التي تعرضنا لها تفيد معنى «تجار السلع كالمح والخمير والفخار والفواكه..» أو ليس في كل ذلك الإثبات على صحة وتماسك ما توصلنا إليه؟

ثم إنه لتقريب هذا الاستنتاج الذي يربط أسماء الأماكن بالتجارة، وهو ليس فريداً من نوعه في التاريخ، نفيد بأن «أرض كنعان» أو أرض الكنعانيين أخذت، اسمها هي الأخرى من التجارة. فإن كلمة «كنعان=Kanaan» تعني «تاجر أو فينيقية» حرفياً بالعبرية وأيضاً فإن «Kanaan=كنعاني» تعني تاجر. وأسوق مثلاً آخر، من اليونانية هذه المرة، وهو لفظ «Εμπόριον» = إمبريون أي سوق تصريف وتوزيع البضائع) الذي أطلق على مدينة أسسها التجار اليونانيون على الساحل الشرقي لشبه الجزيرة الإيبيرية ليس بعيداً إلى الشمال من مدينة برشلونة الإسبانية اليوم وذلك في القرن السابع قبل الميلاد، وهي تدعى اليوم أمبورياس. وكان هؤلاء التجار البحارة اليونانيون قد قدموا

الشام والشام ودمشق وسورية: ما هي معانيها اللفظية؟

وبعد البحث في أصول الآرامية تبين لنا أن اسم «دمشق» تماماً كما يُلفظ اليوم، أي بكسر الدال وفتح الميم وتسكين الشين يمكن إرجاعه إلى تعبير آرامي بامتياز هو «دي مَشَقِي» وهو الصيغة المختصرة لعبارة «دي مَشَقِيونو» (راجع: Robert Payne Smith & Tyndale Syriac Lexicon) وتعني حرفياً «أم السواقي». ودمشق أم الفروع السبعة لبردى لجديرة بأن تحمل هذا الاسم وليس غيره. ولدينا هنا في ربوع الساحل السوري منطقة رائعة الجمال تحمل اسم «مشقيتا» وتعني «المسقية» أو «المروية» بالآرامية (والسريانية طبعاً).

أي بالألف وليس بالياء. وهم يقولون إن المقصود بذلك هو شيء من قبيل «أم العُطْرَيْن» أو «أم العبيرَيْن» نسبة لما عرف عن الغوطتين المحيطتين بدمشق: الشرقية والغربية. وفي هذا التأويل إرجاع لاسم دمشق الآرامي إلى أصول يونانية. وهذا ما لا يصح طبعاً. لأن اليونانيين أتوا بعد دمشق وليس قبلها، وأطلقوا اسم «داماسكوس» تحريفاً عن دمشق لأن اليونانية لا تحتوي على صوت أو حرف الشين أولاً، ولأنهم يُلحِقون الـ «وس» في نهايات الأسماء التي يعتبرونها مُذَكَّرَةً بالنسبة لهم للدلالة على تذكيرها.

الهوامش:

- ١- انظر PRITCHARD, James B., Ancient Near Eastern Texts, p.p 278, Princeton University Press.
- ٢- يبدو أن هيرودوتس، الذي عاش في القرن الخامس ق.م، اكتفى بالتشابه اللفظي بين Syria و Assyria للوصول إلى هذا الاستنتاج دون تدقيق أو تحييز، فالحقيقة أن السوريين لم يكونوا من الآشوريين لأن الآشوريين كانوا يشيرون إلى سكان سورية من الآراميين ليس فقط على أنهم الغير، بل كانوا يحاربونهم في حملاتهم المعروفة جيداً من خلال حوليات ملوكهم، وقد أوردنا في متن البحث مقتطفاً من الحولية التي تذكر معركة قرقر الواقعة على مسافة سبعة كيلومترات إلى الجنوب من جسر الشغور. فالآشوريون لم يحملوا اسم سورية ولا العكس صحيح، بل إن من حمل اسم سورية هم السريان الآراميون كما الأقباط المصربون بالنسبة لمصر. (م. ملاتينوس جغنون)
- ٣- انظر: د. عبد الرحمن الكيالي، مجلة العاديات، العدد ٣، ص ٢، المطبعة المارونية، حلب ١٩٣٤. (بشيء من التصرف بالعبارة دون المساس بالمعنى على أية حال).
- ٤- انظر: م.ع.ق. بافقيه، أيبستون، ك. روبان، ومحمود الغول في «مختارات من النقوش اليمينية القديمة ص ١٣٣، ١٦٦، ٢٢١، ٢٢٢ و ٣٧٩.
- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٩٨٥.